مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ **ISSN:** 1112- 7872
E-ISSN: 2600-6162
مجلد: 17 عدد: خاص جانفي 2022
العنوان: حواضر وادي مزاب عبر التاريخ. ص.ص 810- 838.

حواضر وادي مزاب عبر التاريخ

طاعة مصطفى، سعيود إبراهيم.
1- جامعة غرداية
Taa.mustapha@univ-ghardaia.dz
2- جامعة أبو القاسم سعد الله الجزائر العاصمة
Brasayoud60@yahoo.fr
مخبر الجنوب الجزائري للبحث في التاريخ والحضارة

تاريخ الإرسال: 2020/05/12؛ تاريخ القبول: 2021/09/22

The Cities Of Wadi Mzab Throughout History.

A. Taa Mustapha, B. Brahim Sayoud

Abstract:

The present Mzab city has a long history, so archaeological excavations in the region indicate that man lived from the stone ages, which later led to the establishment of palaces and cities that do not differ much in their livelihood, she was able to participate in the civilized construction even though she has a strategic location and is a remote isolated area, playing the celibate council has an important role in restoring justice, organizing society, and spreading calm in the present, and making it historic stations that participated in making the history of Algeria, It begins with the transformation of their social life from the Bedouins to the urban areas and the beginning of the establishment of the first villages of Mzab in accordance with customary systems and laws that contributed to their organization despite the fact that the region received many expatriates, especially in the famous modernity when the slaves came to Tahrir and their position on the Crusades on the coasts of Algeria and their association with the Ottoman caliphate and stand for their multifaceted contribution to the national movement.

Keywords: Wadi Mzab; Council of Izbat; Palaces; Treaty of Protection; Turks; Blessed Revolution.

الملخص:

تملك حواضر مزاب تاريخا طويلا، فتشير الحفريات الأثرية في المنطقة على أن الإنسان سكنها منذ العصور الحجرية الموغلة في التاريخ، مما أدى فيما بعد إلى تأسيس قصور ومدن لا تختلف كثيرا في أنماط معيشتها، استطاعت أن تشارك في البناء الحضاري رغم أنها لا تملك موقع استراتيجي وهي منطقة نائية معزولة، لعب فيها مجلس العزابة دورا هاما في إقرار العدل وتنظيم المجتمع ونشر الهدوء في المنطقة، جعل لها محطات تاريخية شاركت بها في صنع تاريخ الجزائر، تبدأ بتحول حياتهم الاجتماعية من البدو إلى الحضر وبداية تأسيس القرى الأولى في مزاب وفق نظم عرفية وقوانين ساهمت في تنظيمها رغم أن الحواضر إستقبلت الكثير من الوافدين جراء الحادثة المشهورة لما قدم العبيدين إلى تيهرت، وموقفهم من الحملات الصليبية على سواحل الجزائر وارتباطهم بالخلافة العثمانية، والوقوف على إسهامهم المتعدد الجوانب في الحركة الوطنية.

الكلمات المفتاحية: وادي مزاب؛ القصور؛ الأتراك؛ معاهدة الحماية؛ الثورة التحريرية المباركة.

1- مقدمة:

إن بلاد مزاب الواقعة في الجنوب الجزائري التي سكنها بني مصعب أول الأمر، كانت ملاذاً للإباضيين الفارين من بطش العبيدين، حيث استقروا حينا من الدهر في وارجلان وسدراتة قبل انتقالهم إلى مزاب، ففي القرن الخامس هجري والحادي عشر ميلادي وبعدما تهيأت الظروف للساكنة شيدوا نمط عمراني يتماشى مع المعطيات المناخية للمنطقة، تحول مع الزمن إلى سبع حواضر لها أهمية بالغة في النواحي الحياتية للدولة، أضاف عليها هذا التحول صرحا حضاريا ساهم في صنع تاريخ المنطقة، رغم انعزالها وصعوبة طبيعتها، فكانت في مقدمة هذا الصرح ظهور نظام حلقة العزابة التي صنعت الجديد وكان لها الدور في إيصال صوت المجتمع الإباضي عهودا طويلة.

فما هي أهم الأحداث التاريخية لحواضر وادي مزاب منذ نشأتها، وكيف ساهمت في صنع أهم المحطات الوطنية عبر العصور؟

يهدف هذا المقال لتسليط الضوء على الحواضر المزابية في مختلف مراحلها التاريخية منذ العصور القديمة ومرورا بصدر الإسلام وتحولهم من الاعتزال إلى الإباضية في ظل تكوين حواضرهم وتزويدها بنظم عرفية ساهمت بتوفير الهدوء للمنطقة في مختلف مناحي الحياة، وإظهار ردود أفعالهم من بعض المحطات التاريخية للجزائر، خاصة لما كانت تابعة للباب العالي، وموقفهم من الحملة الفرنسية على العاصمة ومساهمتهم في المقاومة الشعبية وريادتهم في النضال السياسي ودعمهم للثورة، وقد اتبعت في معالجة هذا الموضوع المنهج التاريخي، حيث نتتبع أهم الأحداث والمحطات التاريخية لحواضر مزاب تتبعا تاريخيا منطقيا.

2- أصل التسمية:

بلاد مزاب هي الجزء الأعظم من بلاد الشبكة التي تقع شمالي صحراء الجزائر، وسميت بذلك لأن معظم قصورها تقع على هضبة صخرية شبيهة بالشبكة ينسج خيوطها أودية عديدة، سكانها الأصليون من قبيلة بني مصاب وهذا الأخير هو مصعب بن محمد بن بادين، انتقل بنوه إلى الشبكة مع بني إخوته عبد الواد وتجين وزردال، وهم الطبقة الثانية من زناتة فالمنطقة انتسبت إلى القبيلة مع بعض التحريف وقلب الصاد إلى زاي، فكتبت مصاب (مزاب)، وهذا ما أشار إليه ابن خلدون في حديثه عن فرار السلطان أبي حمو موسى الثاني إلى وادي مزاب، حيث أنه كتب مصاب في النسخة الخطية بصورة الصاد وسطها زاي، إشارة إلى أن الصاد تنطق مشمة بالزاي. (عبد الرحمن بن خلدون، 2000م: 80)

3- تأسيس حواضر مزاب:

بلاد مزاب كانت عامرة بالسكان منذ أقدم العصور، فهي غنية بالرسوم على الصخور التي تثبت أن إنسان ما قبل التاريخ استقر بها، فالآثار دوما تعتبر عنوانا للفترة التي عاش فيها الإنسان، فقد ألقى

الدكتور(Pierre Roffer) بيير روفر في الدورة الحادية عشر لمؤتمر ما قبل التاريخ المنعقد بفرنسا سنة1352هـ/ 1934م محاضرة وضح فيها حصيلة بحوثه الميدانية في بلاد الشبكة، حيث حدد إحدى عشر محطة من العصر الحجري الأول والتي بلغ عدد موادها الأثرية ما يقارب 2959 أداة، أضف إلى ذلك الرسوم الصخرية التي تثبت أن إنسان ما قبل التاريخ استقر في وادي مزاب دهرا طويلا، فهذه الصخور التي لا تعد، نقشت عليها رموز وحروف أمازيغية وحيوانات عاشت في المنطقة لما كانت الشبكة جنة خضراء مثل الفيل والزرافة في بريان (يحي بن بهون الحاج أمحمد، 2015م: 89-90)، وتم العثور على العديد من المواد الأثرية في بعض المناطق من وادي مزاب اشتملت على بقايا حيوانية ونباتية متحجرة، وأدوات حجرية وأواني فخارية وعلى نقوش صخرية، مثل مناطق أوخيرة بالعطف، مُرمُو ببني يزقن وقصور بابا سعد بغرداية، أولوال، واغرام تلرضيت، تافيلات، موركي....إلخ. (حمو محمد عيسى النوري، 1982م: 20)

إن وادي مزاب كانت يعرف ببادية بني مصعب ينتمون إلى قبيلة زناتة البربرية، فبنوا مصاب هم بنو بادين من أولاد زرجيك وينتسب لهم بنو توجين وبنو زردال وبنو عبد الواد وجميعهم يتفرعون عن بادين بن محمد ، هؤلاء كلهم كانوا يعرفون بالزناتة قبل أن تتشعب إلى هذه البطون مع مرور الزمن. (عبد الرحمن بن خلدون، 2000م: 80)

وهكذا اختلط بني عبد الواد بالمصاب وهم كلهم من زناتة، فكانت بادية بني مصعب في بداية أمرها يغلب عليها نمط البداوة والبساطة يعتمد سكانها على تربية المواشي وعلى الزراعة الموسمية والأشجار المثمرة كالنخيل، اعتنقوا الإسلام وحافظوا على حياتهم في تنظيمات اجتماعية بدوية ، يقول عنها الحسن الوزان:«مزاب منطقة مؤهولة في قفار نوميديا على بعد نحو ثلاثمائة ميل شرق تيكورارين، وعلى نفس المسافة من البحر المتوسط.....وهي أيضا رأس تجاري يلتقي فيه تجار الجزائر بتجار أرض السودان». (الحسن بن محمد الوزان، 1983م: 135، 135)

4 - حواضر وادي مزاب في العصور الوسطى:

4-1-الانتقال من الاعتزال إلى المذهب الإباضي:

بعد الفتوحات الإسلامية اعتنق البربر الدين الإسلامي وحسن إسلامهم وساهموا في نشره، وأخذ بني مزاب أصول الاعتزال وكانوا يسمون واصلية نسبة إلى واصل بن عطاء **(أنظر التعليق رقم :01)**، وهذا ما ذكره القطب بقوله: «وليس أهل هؤلاء القرى إباضية من أول، بل كانوا معتزلة، يسافرون إلى تاهرت لقتال الإباضية». (أطفيش محمد بن يوسف، د.ت: 38)

وقد ذكر أعلام السير كدرجيني والشماخي أن الإمام محمد بن أبي بكر الريغي**(أنظر التعليق رقم:02)** أو الريفي المتوفي سنة 440هـ /1048م لما قدم من وارجلان نزل بقصر العطف ووجد فيه سكان واصلين معتزلة، فبنى مسجده سنة 422هـ/1031م الذي لا يزال قائما إلى يومنا هذا، وباشر فيه مهمته التي جاء من أجلها وهي الدعوة إلى المذهب الإباضي فاتبعه الكثير من سكان القصر، وأصبحت حواضر بلاد الشبكة ملاذا للكثير من المهاجرين والفارين من الفتن،وكثر أتباع الإمام الريغي وهنا وقع التحول على من كان معتزلا إلى المذهب الإباضي بفضل دعوة هذا العالم. (حمو محمد عيسى النوري، 1982م: 56)

4-2- تأسيس حواضر وادي مزاب:

يذكر الكثير من المؤرخين أن بنو مصعب سكنوا الخيام وهذا ما يدل على أن نمط معيشتهم القائم على البداوة وتربية المواشي، ثم أسسوا تجمعات سكانية تحولت مع الزمن إلى قرى ولعل أقدم قرية بنيت جنوب شرق العطف كانت حوالي 95هـ/713م وهي أغرم نتلرضيت، وهذا ما نقله يوسف بن بكير عن الشيخ إبراهيم مطياز صاحب مخطوط "تاريخ مزاب"، فاعتبرت هذه القرية بداية التحول من حياة البادية إلى الحضر، ونجد أن هذه القرى الأولى اندثرت ولم يبق منها إلا الأطلال وتأسست قرى أخرى في مواقعها مع بداية العصور الوسطى، ففي سنة 395هـ/1004م بنيت قرية أغرم أنوادي بين مليكة الحالية والوادي، وحتى هذه القرية لم تسلم من الخراب،

وبقي مسجدها شاهدا على تأسسها، فيقال أن أولاد عبد الله المغراوة خربوها وهم من رعايا بني رستم. (يوسف بن بكير ، 2017م: 15)

أما أهم الحواضر الحالية وأقدمها فنجد (تاجنينت) العطف حاليا ومعناها المكان المنخفض، كما قيل ان التسمية هي نسبة لبعض العائلات البربرية القاطنة فيها (بكير بن سعيد اعوشت، 1993م:46) واللفظ القريب لها بالبربرية هو (تاقنينت) نسبة إلى الإناء الذي يصنع من سعف النخيل ويطلى من الداخل بمادة القطران ليستعمل بعد ذلك للماء أو اللبن (إبراهيم بن يحي "الشيخ القرادي"، 2015م: 28)، أنشأها الخليفة بن أبغور سنة 402هـ/ 1012م، وقرية آت بونور أو بونورة شيدت سنة 457هـ/ 1065م على جبل منقطع عن باقي الهضبة، وبنور إسم لجد إحدى القبائل الزناتية، أو هو إسم للوالي الصالح (سيدي بنور) الذي يطلق على مقبرة في الجزائر العاصمة. (إبراهيم بن يحي "الشيخ القرادي"، 2015م: 29)

أما في سنة 477هـ/ 1085م أسست قرية تغردايت (غرداية) التي تعني بالبربرية الجبل، ومنهم من يذهب بمعناها إلى الأرض المستصلحة الواقعة على ضفة مجرى الوادي،وقد جاء في الرسالة الشافية لصاحبها أمحمد أطفيش أن غارداية سميت باسم الغار الذي نزلت به امرأة اسمها داية، وهو معروف إلى يومنا هذا موجود في أعلى الجبل الذي بنيت عليه القرية (أطفيش محمد بن يوسف، د.ت: 21)، وتزامنا مع تأسيس هذه القرى كانت قرى أخرى تخرب ويطرح معها التساؤل إلى أين توجهوا الأهالي بعد هذا الخرب والجواب وجدناه في تأسيس قرية آت يزجن أو بني يسقن التي شيدت سنة 721هـ/ 1321م، سميت بهذا الاسم نسبة إلى قبيلة زناتية بالقرب من عين الفكرون بقسنطينة تسمى (السقنية) (إبراهيم بن يحي "الشيخ القرادي"، 2015م: 29)، فهذه القرية استقبلت سكان القرى المجاورة المهجورة جراء الدمار والحرب والخراب مثل تلات موسى، أفنوناي، بوكياو، موركي وغيرها، أما آخر القرى الخمس التي بنيت في العصور الوسطى فكانت مليكة وهذا في سنة 756هـ/ 1355م وسبب تسميتها بمليكة يعود إلى قبيلة أمازيغية تسمى مليكش في شرقي الجزائر سكنت المنطقة.(يوسف بن بكير ، 2017م: 20)

أما فيما يخص تخطيط هذه المدن فالمسجد كان يتوسطها وهو أول بناء يشيد لقيمته الدينية والحضارية لدى المجتمع المزابي، وتلتف حوله المنازل ويحيط به السور تتخللها مداخل وأبراج للحراسة، كما أن أغلب هذه القرى بنيت على جبال لدواعي أمنية وصدا للغارات.(يوسف بن بكير ، 2017م: 21)

وإن كانت كل القرى القديمة أنشأت على سفوح الجبال واختار أهلها السهل في تأسيسها ولكن يبدو أنهم لما تعرضوا إلى النهب والغارات باعتبار هذه الحواضر كانت في متناول هؤلاء الذين احترفوا السرقة والإغارة ،فاستفادوا بني مزاب من هذه التجربة وغيروا أماكن تشييد حواضرهم إلى قمة الجبل لتكون أمنع وأكثر أمنا، فعلى سبيل المثال لا الحصر فإن قرية تمزرت وقرية ترشي وأفنوناي كلها كانت على السهل، أما القرى التي تكونت فيما بعد شيدت على قمم الجبال، ويبدو أن هذا نظام دفاعي اتبعه بنو مزاب في تأسيس مدنهم، كما أن هذه الحواضر شهدت اتساعا في عمرانها عدة مرات ويظهر ذلك من خلال تغير سور القصر والأسواق والآثار خير دليل، ومرد هذا التوسع إما زيادة في عدد السكان وقلة الماء أو استقبالهم وافدين جدد فيضطر أهلها إلى الزيادة في مرافقها وتجديدها. (إبراهيم محمد طلاي، 2013م: 24، 25)

5- حلقة العزابة:

إن السلطة في المجتمع المزابي كانت أول الأمر بين أيدي رؤساء العشائر، ثم تحول مركز السلطة في القرية إلى الهيئة الدينية الممثلة في حلقة العزابة **(أنظر التعليق رقم:03)**، إلا أننا لا نعرف بالتحديد من رشح الهيئة لتولي هذه السلطة المتعددة الجوانب، أما الذي نتيقن منه فإن الحلقة التي رتبها الشيخ عبد الله محمد بن بكر لم تكن لها أي نفوذ على المجتمع في بادئ الأمر، ولم يكن هدفها إخضاع المجتمع الإباضي، وإنما الحلقة كان هدفها تربوي تعليمي تسهر على

تكوين النشء وهذا هو مقصدها في البداية. (قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج، 2011: 74)

ولعل هذا النظام في بدايته كان عرفا يسير عليه الإباضية حتى جاء الإمام أبو عبد الله محمد بن بكر في أواخر القرن الرابع هجري فحرره على شكل قانون يشمل قواعد تطبق على مواطن الإباضية في ليبيا وتونس والجزائر ، وعلى هذا الأساس أصبح الإمام السالف الذكر هو واضع حلقة العزابة. (علي يحي معمر، 2008م: 87)

مع مرور الزمن لم تبق الحلقة على ما سطره الإمام أبو عبد الله وإنما تطور نظامها وقواعدها وكانت تضاف إليها من حين إلى آخر تنظيمات جديدة، حتى تحولت هذه الهيئة إلى أعلى سلطة روحية في المجتمع الإباضي لا يشرف عليها إلا العلماء والأعيان، تسير شؤون المجتمع دينيا وتعليميا وسياسيا واقتصاديا واجتماعيا.(يوسف بن بكير ، 2017م: 29)

ولما أصبحت حلقة العزابة تمثل خيرة أهل البلد علما وصلاحا، وخاصة لما اتخذت من المسجد قاعدة وصرحا لجميع نشاطاتها فإنها قد أشرفت بالكامل على شؤون المجتمع الإباضي واستلمت زمام الأمور، خاصة أن للمسجد وقع وتأثير في نفوس المزابيين. (حمو محمد عيسى النوري، 1982م: 155)

6- مجلس العوام:

هو من الهيئات العرفية في حواضر وادي مزاب، تتشكل من أعيان القصر وهم في الغالب شيوخ العشائر، يتولى هذا المجلس إدارة شؤون القصر السياسية والأمنية والإدارية، وتتشاور دوما مع هيئة العزابة في خدمة الصالح العام، لا نعرف بالتحديد تاريخ إنشاء هذا المجلس، إلا أن أقدم ما كتب من قرارات صدرت عنه كان بتاريخ رجب 807هـ/ 1405م، فهذا المجلس كذلك توكل له مهمة وضع القوانين وإصدار الأحكام في الجرائم والجنايات والمعاملات، كما يضع اللوائح الداخلية التي تخص الحياة العامة في القصر مثل اعتماد

سكة نقدية ورفض أخرى، وتحديد المكاييل والموازين وغيرها.(الحاج موسى بن عمر، 2008/2007م: 16- 17)

يعرف هؤلاء العوام ب(المقاديم) فهم الذين يتفقون مع عزابة القصر في وضع قواعد ونظم المدينة خاصة ووادي مزاب عامة، يكونون من وجهاء العشائر أي أشخاص ذووا شأن ولا يشترط فيهم المستوى العلمي عكس أعضاء العزابة، يضاف إلى أدوارهم المشاركة في عقد الاتفاقيات والسهر على تنفيذها والحفاظ على النظام العام. (محمد ناصر بالحاج، 2014/2013م: 29)

7- مجلس عمي سعيد:

كانت حواضر (قصور) وادي مزاب تشكل اتحادا، يسهر على أموره مجلس أعلى مشكل من علماء هذه القصور وبدورهم هم أعضاء وممثلين لحلقات عزابتهم في قراهم، ينتخبون ليشكلوا الهيئة التشريعية في وادي مزاب عامة والتي تعتبر مركز السلطة في المجتمع الإباضي، يعقد جلسته كل ثلاثة أشهر في مسجد عمي سعيد بن علي بن يحي بن يدر بن سليمان بن عثمان الجربي **(أنظر التعليق رقم:04)** المتوفى سنة 898هـ/ 1493م وفد من جزيرة جربة واستقر بالحاضرة المزابية لنشر العلم،أسس مجلس الفتوى، كان لهذا المجلس الدور البالغ في استقرار المنطقة وتنظيم حياتها الاجتماعية، وذلك بوضع القوانين والأحكام وفق الشريعة الإسلامية، سمي باسمه بعد وفاته، وللعلم أن مجلس عمي سعيد أسس يوم 13 شوال 855هـ الموافق 16 نوفمبر 1451م. (محمد ناصر بالحاج، 2014/2013م: 64)

8- وادي مزاب في العهد العثماني:

كان ارتباط المزابيين بالمناطق الشمالية للجزائر ارتباطا دائما لكونهم يمتهنون التجارة والحرف، فقد اعترفت هيئات حاضرة مزاب بالوجود العثماني صونا لقوافلهم التجارية التي كانت تنتقل من تونس إلى المغرب، ويمكن القول أن المزابيين كانوا مخلصين للأتراك في معاملتهم ودعمهم لدحر الأوروبيين عن شمال إفريقيا، خاصة وأنها كانت تشهد غارات صليبية حاقدة، وتجسيدا لهذا الدعم والتبعية

السياسية كانت حاضرة مزاب تدفع للسلطة العثمانية سنويا اثني عشر عبدا واثني عشر آمة. (يوسف بن بكير ، 2017م: 77)

ويقول الشيخ أحمد توفيق المدني: «لما كان المزابيون يهاجرون إلى بلاد التل باستمرار قصد التجارة والكسب، فقد إعترفت قصورهم...عند انتصاب الأتراك بالبلاد، بالتبعية للديوان، وإنما كانت التبعية اسمية فقط..فكان استقلالهم مطلقا في بلادهم». (أحمد توفيق المدني، 1986م: 138)

ويؤكد الشيخ القرادي أن المزابيين لهم مكانة مرموقة ومواقف مشهودة في العهد العثماني، ولحماية تجارتهم وممتلكاتهم التي كانت تجوب المناطق التلية أبرموا اتفاقية مع الحكام الأتراك في الجزائر، ولعل هذا الارتباط يعتبر أول وثيقة رسمية سياسية ربطت الصحراء الجزائرية مع الإيالة عن رضا وطواعية. (إبراهيم بن يحي"الشيخ القرادي"، 1990م: 176)

ما يؤكد هذه التبعية هو حينما قام بعض زعماء الطوائف في جنوب الجزائر بالتمرد على السلطة المركزية الجزائرية قام محمد الكبير باي برحلته إلى الصحراء لإخضاع المتمردين سنة 1199هـ/ 1785م فيذكر أحمد بن هطال التلمساني في كتابه "رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري" ما نصه: «وأهم غزواته التي قام بها داخل البلاد هي غزوة الجنوب الصحراوي الجزائري التي جهز لها جيشا عرمرما ونزح به من معسكر مارا بجبل عمور والبيضاء وآفلو والطويلة إلى أن وصل مدينة الأغواط، حيث دخلها بقوة هائلة ونشاط متزايد فانقاد له جميع القبائل التي بضواحيها بما فيها ميزاب واعترفوا كلهم بدولة الأتراك في القطر الجزائري ورضوا أن يؤدوا لها الضرائب السنوية عن طيب نفس ذلك في سنة 1199هجرية 1785 ميلادية». (أحمد بن هطال التلمساني، 2004م: 18)

والمزابيون في دار السلطان كانت لهم نقابتهم وأمينهم، فكان وضعهم مختلف عن بقية البرانية وذلك بحكم تمتعهم بحقوق الملكية داخل المدينة فكانت لهم عقود ملكية لمحلاتهم السكنية والمهنية ويذكر يوسف بن بكير في مرجعه (تاريخ بني مزاب) نقلا عن الدكتور عمار

بن خروف: «أن جماعة بني ميزاب في مدينة الجزائر كانت من الجماعات المهمة التي نشأت فيها في العهد العثماني، والتي كان لها وزنها المالي والتجاري فيها، ودورها الفعال في النشاط الاقتصادي في المدينة، إن لم تكن أهمها على الإطلاق...». (يوسف بن بكير، 2017م: 79)

فكانت الجماعات المزابية تعطي قروضا من صندوق التضامن لدايات الجزائر، وكانت تدفع لحكومة الأتراك سنويا مبلغ أربعمائة سائمة، وإنما يدل هذا على العلاقة الوطيدة التي ربطت المزابيين بالأتراك خلال فترة حكمهم. (يوسف بن بكير ، 2017م: 80)

8-1- تأسيس القرى في العصر الحديث:

تتفق المصادر المحلية ومنها الرسالة الشافية لصاحبها محمد أطفيش وكذلك الأبحاث الأجنبية في مقدمتها دارسات(Masqueray) ماسكراي، على أن تشكل حواضر مزاب يعود إلى إتحاد مدن صغيرة كانت قائمة من قبل، حيث جاء في رسالة القطب «في أجداد بني مزاب في هؤلاء القرى الخمس، أعلم أن أهلها كانوا في مواضع قريبة من حيث هي الآن». (أطفيش محمد بن يوسف، د.ت: 20)

والأكيد أن هذه المدن الصغرى اتحدت في شكل اتحادات عرشية أي قصور كبرى، وهي الحواضر السبعة المعروفة حاليا، وذلك بتأثير ظروف قاهرة لخصها القطب في كون القبائل لم تكن آمنة من الحروب وقلة الماء، فكانت بالتالي كثير التنقل، وهنا لابد من الإشارة للتضارب والغموض حول تواريخ تأسيس القرى الحديثة ولاسيما مدينة القرارة وبريان.

8-2- إنشاء القرارة:

في القرن السادس عشر ميلادي حدثت فتنة في غرداية مما أدى إلى خروج فرقة من بني مزاب وهم آل باخة والعفافرة وأولاد نوح إلى الأغواط مغتاضين من مقتل أحد أبنائهم، وقد اشتغلوا في التجارة ما يقارب الثلاثين سنة واتفقوا على بناء مسجد لهم في

الأغواط فمنعوهم أصحاب البلد وأقدموا على إخراجهم. (يوسف بن بكير، 2017: 87)

ونتيجة عدم اطمئنان بني مزاب في مدينة الأغواط ارتحلوا إلى واد زقرير القريب من موقع قصر القرارة الحالي أين أسسوا قصر المبرتخ وكان يتشكل هذا المجتمع كما سبق وصفه من مجموعة عشائر أمثال أولاد نوح وأولاد باخة والعفافرة وبعض المنفيين من بني يزقن، و بسبب هذا المزيج انتشرت الفتن وانقسم المجتمع إلى صفين أحدهم يضم أولاد باخة، أدى الاضطراب في الأخير إلى نفي عرش باخة إلى غرداية، إلا أن معاملة سكانها السيئة جعلت عددا منهم يعود إلى قصر المبرتخ لكن الأبواب قد أوصدت في وجههم مما دفعهم إلى الاستنجاد بابن جلاب صاحب تقرت فحاصر قصر المبرتخ ليتمكن أولاد باخة من تأسيس قرية لهم على كدية العقاب سموها القرارة سنة 1040هـ/ 1631م، وتستعمل تسمية القرارة للتعبير عن هضبة مرتفعة حولها أرض منخفضة ومنها جاءت كلمة قوارير التي نشاهدها في منطقة توات في الجنوب الغربي الجزائري (إبراهيم بن محمد، 2017م: 34)، وبعد فترة طويلة من الحروب والفتن بين سكان القرارة والمبرتخ، تم تخريب قصر المبرتخ لذلك اعتبرت القرارة بلدا مغصوبا في التاريخ المزابي دفع العزابة إلى إعلان البراء من هذا القصر مدة من الزمن. (يوسف بن بكير ، 2017م: 88)

3-8- إنشاء بريان:

بعد تخريب قصر المبرتخ فإن أولاد نوح والعفافرة انتقلوا إلى الموقع الحالي لبريان في منطقة يلتقي فيها وادي السودان ووادي بالوح وشيدوا قصرهم، ويبدو أن ذلك كان سنة 1101هـ/ 1690م وهذا حسب التاريخ المدون على مئذنة مسجد بريان. (يوسف بن بكير ، 2017م: 90)

في حين يرى الباحث (Montylins) موتيلنسكي أن تاريخ التشييد هو 1105هـ/ 1596م (A. De. C. Montylins Ki Adec, 07 p: 1885). ويبدو أن التاريخين متقاربين أي أن التأسيس كان في نهاية القرن السادس عشر، ولقلة الماء في المناطق الأخرى

والاضطرابات انضم إلى المؤسسين كل من أولاد يحي وآل دبادبة وقبائل أخرى من العرب وهم على المذهب المالكي، وقد امتاز قصر بريان بالفلاحة بفضل خصوبة أراضيه والموقع الممتاز بحيث أن هذه الواحة تسقى من أودية بالوح والسودان والزرفي ومداغ، هذا ما جعل منها مدينة زراعية بامتياز جمعت العرب والبربر، اشتهرت بمنسوجاتها الصوفية البيضاء فكانت ذات جودة عالية كالزرابي والحايك والقشابية. (إسماعيل بن محمد لعساكر، 2018م: 114)

9- وادي مزاب والاحتلال الفرنسي:

لقد استشهد كثير من مزابيين في المعارك الطاحنة التي قادوها ضد المحتلين، فعند نزول القوات الفرنسية في سيدي فرج 23 ذو الحجة 1245هـ الموافق 14جوان 1830م، لبى حوالي أربعة آلاف مزابي النداء التركي (سيمون بفايفر، 2009م: 76 -77) والملاحظ أن هذا العدد كبير مقارنة بعدد سكان وادي مزاب يومئذ، ولعل تبرير ذلك حسب ما ذكره الشيخ القرادي مرده معاهدة الولاء مع الأتراك ولكون هذه النجدة الأولى من نوعها بالنسبة لسكان الصحراء فقدروا الاستغاثة وبعثوا أكبر عدد ممكن، كما أن هذه الهبة المزابية ضد الحملة الفرنسية لها منطلق إسلامي، فالعقيدة كانت قوية لإعلاء كلمة الله. (إبراهيم بن يحي"الشيخ القرادي"، 1990م: 177)

ومن خلال هذه الروايات يظهر لنا أن المزابيين شاركوا في مقاومة الاحتلال الفرنسي بقوة وعزيمة منذ الوهلة الأولى للحملة الفرنسية وسقط منهم الكثير في ساحة الشرف ولهؤلاء الشهداء مقبرة خاصة في اسطوالي معالمها اختفت. (الحاج موسى بن عمر، 2008/2007م: 27)

كانت حامية الميزابيين بجبل سيدي بالنور بالعاصمة آخر حامية إستمرت ترسل نيرانها بعد إحتلال العاصمة، كما سجل التاريخ أن آخر قوة بقيت تدافع عن قسنطينة بعد إحتلالها هي قوة المزابيين برحبة الجمال داخل المدينة. (حمو النوري، 1982م:253)

استمات المجاهدون المزاب في الدفاع عن الجزائر منذ الساعات الأولى للاحتلال، وقد سقط منهم عدد كبير في ميدان الجهاد

دافعهم في ذلك الإسلام والوطنية، خاصة في المعارك التي قادها ابن زعمون والحاج سيدي السعدي والحاج محيى الدين بن مبارك ومصطفى بومزراق وذلك بين وادي الحراش وبوفاريك والبليدة، وفي مقدمة هؤلاء الشهداء محمد بن الحاج يحيى جد الشيخ القرادي الحاج إبراهيم وعيسى بن موسى الأمين وداود بن يوسف أطفيش شقيق القطب.(حمو محمد عيسى النوري، 1982م: 249)

9-1- بنو مزاب وأحمد باي:

لقد دافع بنو مزاب عن حاضرة قسنطينة دفاعا مستميتا، وهذا الموقف يبقى خالد جعل القائد الفرنسي بعد سقوطها يرفع لهم قبعته تحية لبطولاتهم، ويقال إنهم اشترطوا بعد إيقاف إطلاق النار أن لا يسلموا سلاحهم، وأن لا يدخل الجيش الفرنسي القسم الذي كانوا يدافعون عنه لنهب أو سلب أو انتهاك الحرمات، مما جعل عائلات قسنطينة والبيوتات الكبيرة فيها يبعثون بكل نسائهم إلى تلك الأحياء، فأصبحت رحبة الجمال ملجأ لعائلات أعيان المدينة ومن يرغب في الاحتماء ببني مزاب مدة أيام الاستباحة لبايلك الشرق، ثم إن إحدى النساء حبست أرضا لها بقسنطينة على المزابيين، اعترافا بجميلهم في هذه الحادثة فاتخذوها مقبرة لهم وإن كان هناك من يقول أن هذه المقبرة حبست على المزابيين بعد أن طردهم صالح باي من حاضرة قسنطينة لولا تدخل وليها الصالح بوحجر صاحب زاوية الخروب ليتوسط لدى السلطان حتى يتراجع عن قراره وبفضل مكانة الزوايا والعلماء في دار الحاكم التركي كان لهم ذلك وعفا عنهم. (حمو محمد عيسى النوري، 1982م: 178)

9-2- بني مزاب والأمير عبد القادر:

لما قرر بن زعمون الانسحاب من المقاومة متأثرا من سلوك جيشه خلال معركة بوفاريك ما سبب انهزامه، فالتحق سيدي السعدي بالأمير عبد القادر لمواصلة جهاده، وانضم المزابيون إليه، فكانوا من أطوع جنده، فبسبب شخصيتهم القوية وإخلاصهم جعلهم من خاصته وأمناء سره واتخذهم من بطانته.

وعلى سبيل المثال نذكر الطبيب الماهر باي أحمد بن بابا عيسى الذي اتخذه الأمير طبيبه الخاص وكاتبه وأمين سره وهو من مدينة مليكة بمزاب، ونذكر كذلك الحاج سليمان بن داود صاحب المال والجاه العريض في تيارت ونواحيها قد صادرت فرنسا كل أملاكه بسبب نشاطه في مقاومة الأمير عبد القادر فقد أمدها بالمال والسلاح والمؤن وهو من قصر العطف، وكذا يدر حمو بن يحي من تجار معسكر وابنه يدر الحاج أحمد بن حمو قاضي معسكر وهما من مدينة بني يزقن بمزاب، والحاج داود بن محمد بن موسى بن أحمد الملقب عند الشعب دادي بابا وهو من أثرياء دولة الأمير عبد القادر في قصر البخاري وتيارت والجلفة وكان يطبع له عملته نقودا ذهبية، حتى أصبح أمين مال الأمير، كما كان يصنع للأمير السلاح بوادي مزاب على نفقته الخاصة وقد حكا المسنون أن لذلك السلاح من الجودة ما لسلاح فرنسا من الجودة آنذاك.(حمو محمد عيسى النوري، 1982م: 255)

فعلا حواضر وادي مزاب كانت خزان بارود كما يصفها الكومندون(Dubarail) دوباراي، في تلك الظروف حينما قلة المعونة والمساعدات فقام المزابيون بدورهم على أكمل صورة. (إبراهيم بن يحي"الشيخ القرادي"، 1990م: 181)

3-9- حاضرة مزاب ومعاهدة الحماية:

أعلن الجنرال(De Bourmont) ديبرمون أن فرنسا تنوي السيطرة على بعض المراكز البحرية كالجزائر ووهران وعنابة في إطار احتلالها الجزئي، ولكن مع مرور الوقت فشلت فرنسا في السيطرة على الأهالي لذلك أعلنت سنة 1256هـ/ 1840م عن قرارها الرامي إلى احتلال الجزائر الكلي (الشامل) ولهذا المقصد صدر سنة 1264هـ/ 1848م قرار دستوري يلحق الجزائر بفرنسا، وبدأ معه الاحتلال في التوسع نحو الجنوب الجزائري، سخرت الإدارة الفرنسية لذلك الرحلات الاستكشافية التي قادها نخبة من العسكريين والجواسيس والباحثين ذريعتهم البحث العلمي والتاريخي والجغرافي، وقد رسم المحتل صورة عن المناطق الجنوبية بفضل هذه الرحلات، و

قدمت دراسة معمقة حول الصحراء الجزائرية، وكان وادي مزاب إحدى تلك المناطق، وفي سنة 1266هـ/ 1850م احتلت فرنسا الجلفة لتتخذ منها محطة لقاطرتها العابرة للصحراء. (عبد القادر عزام عوادي، 2018م: 35، 36)

يوم 22 صفر 1269هـ الموافق 04 ديسمبر 1852م لما قرر الجنرالان (Pelissier) بيلسييه و(Youssef) يوسف إحتلال الأغواط التي تحصن بها الشريف محمد بن عبد الله واسمه الحقيقي إبراهيم بن أبي فارس ويعرف كذلك بشريف ورقلة وانضم إليه الناصر بن شهرة، وبعد معارك مريرة سقط حوالي ألفين وخمسمائة ضحية، وهنا تدخل بعض المزابيين العارفين بالصحراء وساعدوا الشريف ورقلة على الفرار إلى وارجلان وأصبحت وادي مزاب وجها لوجه مع القوات الفرنسية التي فكرت بجدية بإخضاع المنطقة. (يوسف بن بكير ، 2017م: 143)

وعقابا للمزابيين على ما فعلوه قام قوم أولاد سيدي الشيخ الشراقة بتحريض من فرنسا بإبادة مواشي مزاب، هذا هو السبب المباشر الذي نتج عنه أزمة سياسية بين جماعات مزاب والوالي العام(Randon) راندون الذي قرر إذعان مزاب لفرنسا وخضوعها، عندئذ أرسل بنو مزاب وفدا لمقابلته، إلا أن ذلك الاجتماع لم ينتج عنه سوى منح أجل مدته شهران لإبرام معاهدة الحماية. (يوسف بن بكير ، 2017م: 143)

وقد اغتنم الحاكم العام ظرف النزاع القائم بين المزابيين من أجل اعتلاء سدة الحكم في غرداية بين الصفين الغربي والشرقي في المنطقة وكتب مكتوبه المؤرخ في 14 ربيع الثاني 1269هـ الموافق 24 جانفي 1853م يعرض فيه تأمين بني مزاب وتجارتهم مقابل الخضوع ودفع الضريبة المقدرة بخمس وأربعين ألفا فرنك وقد ختم رسالته بتهديد صريح ، وهنا ظهر حزبان في وادي مزاب، حزب أبدى استعداده لقبول شروط الوالي العام، وحزب رفض العرض وأجرى اتصالات مع الشريف محمد بن عبد الله، وهذا ما أثار فرنسا التي قامت بضرب حصار اقتصادي على المنطقة مما دفع عزابتهم للاجتماع في مسجد عمي سعيد وأوفدوا يوم 14 رجب 1269هـ

الموافق 22 أفريل 1853م جماعة إلى الأغواط بغرض إبرام المعاهدة، وتم عقد المعاهدة مع الكومندون(Dubarail) دوباراي (يوسف بن بكير ، 2017م: 145)، تعهدت فرنسا من خلالها على احترام طبائع المزاب بشرط غلق الأسواق المحلية في وجه الثوار وهكذا رفع الحصار الاقتصادي.

ولما توجه الكومندون(Marguerit) مارغريت سنة 1273هـ/ 1857م من الأغواط صوب وارجلان على رأس كتيبة من الجند عزم على دخول غرداية، إلا أن سكانها أوصدوا أبوابها، فأمر كومندون بتحطيم أحد أبوابها والذي يسمى اليوم الباب الجديد ودخلها وعزف الموسيقى الفرنسية، وهذا الواقعة تعتبر بداية خرق المعاهدة، لأنه فيما بعد تواصلت الإهانة والتدخل في الشؤون الداخلية للمجتمع المزابي خاصة لما قررت الحكومة الفرنسية تعيين اليهودي آغا يتح على مزاب، فاعتبر ذلك مخالفا لمضمون المعاهدة وتواصلت مع هذه الأزمات وإرهاق العشائر بالغرامات والضرائب، وظهر ذلك جليا لما رفض المزابيين إرسال وفد لاستقبال الملك (Napoléon3) نابليون الثالث. (يوسف بن بكير ، 2017م: 147)

4-9- إعلان إلحاق حاضرة مزاب بفرنسا:

في 14 ذو الحجة 1299هـ الموافق 26 أكتوبر 1882م تلقى الجنرال (Delatour) دولاتور برقية من الوالي العام (Louis Tirman) لويس تيرمان يأمره فيها بتجهيز حملة والذهاب بها إلى مزاب لإعلان إلحاقها حجتهم أن المنطقة أصبحت تدعم الثوار بالمؤن والسلاح، واشتملت هذه الحملة 1175 جندي وخمسمائة فرس و1815 بعير تحمل مؤونة ، غادرت الأغواط يوم 10 نوفمبر ووصلت غرداية يوم 17 نوفمبر من نفس السنة، فكان هذا الأمر مفاجئا ومباغتا للمزابيين فلو أنهم كانوا على علم بقدومهم لاستعدوا لهم وهذا حسب ما صرح به النقيب (Hart Mayer) هارت ماير في رسالته إلى الإدارة المركزية بالجزائر العاصمة، ورغم المعارضة الشديدة للإلحاق إلا أنه أعلن يوم 19 محرم 1300هـ الموافق لـ30 نوفمبر 1882م، ورفع العلم الفرنسي وفي نفس اليوم سجن قطب الأيمة أمحمد أطفيش يوما كاملا

في معسكر الكتيبة وهي رسالة إلى العزابة لعدم جدوى مقاومتهم للإلحاق.(يوسف بن بكير ، 2017م: 169).

ويذكر يوسف بن بكير نقلا عن (Augustin Bernard) أوقستان برنار: «باستيلائنا على مزاب، قضينا على عش الثورة الدائم والمستودع الذي وجد فيه الثوار ضدنا الأسلحة والعتاد والتموين»(يوسف بن بكير ، 2017م: 168)، ومن خلال هذه الشهادة نتأكد أن المقاومة في الجزائر كانت تعتمد على إخوانهم في حواضر مزاب لتزود بالسلاح والمال، فأكيد أن إلغاء الحكم الذاتي سنة 1269هـ/ 1853م الذي كانوا يتمتعون به سببه التأييد الدائم للمقاومات الشعبية.(يحي بوعزيز، 1980م: 256)

10- حواضر مزاب ونضالها السياسي:

كانت حركة الإخاء الجزائري أول حركة سياسية منظمة في مطلع القرن العشرين تؤمن بالوطنية الصادقة، قدمت مطالب الجزائريين وعبرت عن آمالهم وعرضت قضيتهم على المنابر دون تنكر للوطنية، وعلى صفحات الجرائد وفي بعض التجمعات التي كانت يعتمدها الأمير خالد في فرنسا عبر عن مطالبه المتواضعة، إلا أنها كانت بالنسبة لتلك الظروف خطوات عملاقة، وكانت منطلق لكل الحركات التي نشأت فيما بعد، فكان للمزابيين مساندة فعالة لهذا البرنامج، ويكفي أن نقول بأن وكيل الأمير خالد حفيد الأمير عبد القادر على عائلته وأولاده عند غيابه في فترة الحرب العالمية الأولى هو السيد باخير الناس بكير بن سليمان في مدينة ميلة، وكان السيد إبراهيم المعراض من بين أهم معاوينه، وقد ترشح السيد باعامر موسى بن يحي بن قاسم في قائمة الأمير خالد الانتخابية عن مدينة الجزائر. (إبراهيم بن يحي"الشيخ القرادي"، 1990م: 182)

إن المزابيين لم يساندوا الحركات الإصلاحية فحسب بل هم من مكوينها وحاملي مشاعلها، حيث نجد بأنهم شاركوا مشاركة فعالة في تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1350هـ/ 1931م وأبرزهم الشيخ إبراهيم بن عمر بيوض(**أنظر التعليق رقم:05**) الذي كان عضوا في إدارتها الأولى وواحد ممن صاغوا قانونها الأساسي، خلفه

فيما بعد الشيخ أبو اليقظان(**أنظر التعليق رقم:06**) فكان مناضل اللسان والقلم،

وكانت الفترة التي سبقت هذا المشروع قد بادر شيوخ وادي مزاب لإرسال بعثات علمية إلى تونس وتأسيس المدارس العصرية على غرار ما فعله أسد القرارة الحاج بكير العنق(**أنظر التعليق رقم:07**) سنة 1331هـ/ 1913م الذي أقدم مع زملائه بتكوين مدرسة عربية عصرية نظامية في تبسة لم يكتب لها البقاء، فهذا الزعيم كان من رواد الإصلاح الجزائري لما قدمه في سبيل هذا المنهج والسبيل، فكان بنو مزاب يمثلون الطليعة في إنشاء الطباعة العربية والصحافة الوطنية المحافظة سنة 1338هـ/ 1920م. (محمد صالح ناصر، 2018م: 22)

في سنة 1344هـ/ 1926م أسست جماعة من الشباب الأحرار الجزائريين والمراكشيين والتونسيين في باريس جمعية (نجم شمال إفريقيا) ترأسها مصالي الحاج أحمد(**أنظر التعليق رقم:08**)، تنادي بالتحرر التام من التسلط الفرنسي وتطالب بحق الشعوب المغاربية في تقرير مصيرها فدام الحزب رغم كل الضغوطات 11سنة، ثم حلته الحكومة الفرنسية يوم 14 ذو القعدة 1355هـ الموافق 26 جانفي 1937 وخلفه حزب الشعب يوم 28 ذو الحجة 1355هـ الموافق 11 مارس 1937م بنفس المنطلق، فشارك واد مزاب بشخصيات هامة في دواليب هذين الحزبين الوطنيين نذكر من بينهم مفدي زكرياء(**أنظر التعليق رقم:09**) الذي كان نشيده (فداء الجزائر) سببا في إقبال الشباب على الحزب وتكوين قاعدة جماهيرية له، ويعد مفدي زكرياء من الأوائل الذين زج بهم في السجن مع مصالي الحاج، ولعل من بين أبرز الشخصيات عملا بمبادئ هذا الحزب غرافة إبراهيم(**أنظر التعليق رقم:10**) من غرداية الذي ملك دكانا في العاصمة يسمى نادي (المزاليط) وهو مقر اجتماعات سرية تعقد فيه جلسات يتباحثون من خلالها عن كل ما هو جديد وخاص بالحزب. (حمو محمد عيسى النوري، 1982م: 283)

11- حواضر مزاب والثورة المباركة:

لما اندلعت الثورة المباركة يوم 06 ربيع الاول 1374هـ الموافق 01 نوفمبر 1954م كان المزابيون من أشد وأهم العناصر

الذين اشتغلوا في هذا النضال ومن أصدق من أعدوا له وأثبت من كافحوا بجد وإخلاص وتضحية في بعث الثورة والاستمرار فيها والسير إلى القمة وخير دليل على ذلك القصائد التي كان يتغنى بها التلاميذ في المدارس كلها تدعو إلى التضحية.

ولكن لاشك أن الوجه الواضح لثورة التحرير الجزائرية إنما يظهر في العمل البطولي الرائع الذي قام به المناضلون والفدائيون لمجابهة القوات الاستعمارية، ولهذا نجد ما يقارب الستين ألف من المزابيين كانوا في الصفوف الأولى للثورة. (محمد صالح ناصر، 2018م: 196)

الباحث النزيه لا يجد فرقا واضحا بين تمويل الثورة و حمل السلاح فكلاهما له أهمية بالغة، ولهذا نجد الثورة الجزائرية ضد الاستعمار قد اعتمدت اعتمادا كاملا على متاجر المزابيين، فقد كانت كل الطلبات الثورية تحقق في صمت وسرية، وللعلم فإن مدن الجزائر لا تكاد تكون خالية من المحلات المزابية، فبالإضافة إلى التموين أخذت على عاتقها مهمة تأمين الأشخاص، ونقلهم من مكان إلى مكان لأن شحن السلع أصبح مظهرا طبيعيا بالنسبة للإدارة الفرنسية، خاصة ما تعلق بالتجار المزابيين، وعملوا في إطار تأمين المخابرات للثورة وذلك بسبب تنقلهم الكثير داخل وخارج الوطن، فربطوا بين عناصر الثورة في كل مكان، فكانت الرسائل بين الأقطار الجزائرية وجيرانها في خارج من اختصاص التجار المزابيين. (حمو محمد عيسى النوري، 1982م: 17)

كما أنهم استطاعوا الدعاية للثورة لما أقدموا على شراء مطبعة المجاهد ونقلها إلى دكان الحاج عيسى محمد بن سليمان بنهج مصطفى فروخي بالعاصمة، فطبع فيه السيد بن يوسف بن خدة والشرقي إبراهيم وسي الحسين محمود العدد الخاص لذكرى مرور سنة على الثورة. (حمو محمد عيسى النوري، 1982م: 14)

-خاتمة:

إن منطقة وادي مزاب لها تاريخ عريق فهي موغلة في التاريخ والآثار شاهدة على ذلك، صنعت محطات تاريخية هامة عبر عصورها، فقد أسست حواضرالعطف، بونورة، غرداية، بن يزقن،

مليكة مطلع القرن الخامس هجري والحادي عشر ميلادي وبعد ستة قرون من هذا التاريخ شيدت حاضرة القرارة وبريان، وفق أنظمة وقوانين عرفية ساهمت في بقائها رغم الطبيعة الصعبة والمنعزلة والفتن والحروب الخارجية.

ساهم الشيخ محمد بن بكير الريغي في إعتناق الكثير من سكان بادية بني مصعب المذهب الإباضي بعد إعتزالهم مطلع القرن الخامس هجري، وهذا التحول تغيرت معه معالم الجغرافية المذهبية في الجزائر و المغر ب الإسلامي.

كانت حواضر مزاب ملاذا للعديد من الفارين والمهاجرين والوافدين الباحثين عن الأمن والاستقرار، فتحولت المنطقة إلى مزيجا من الأجناس البربرية والعربية تحت سلطتهم الروحية والدينية الممثلة في مجلس العزابة المسيطر على زمام الأمور، فهذا النظام جعل منهم مجتمع متجانس يختلف على الكثير من المجتمعات المسلمة، فالزائر للمنطقة يشعر بالإعجاب.

إن الترابط والانسجام الإجتماعي في حواضر مزاب ساهم في صنع تاريخ المنطقة مع مطلع القرن السادس عشر ميلادي، من خلال توطيد العلاقات بالأتراك وتوثيق ولائهم بالباب العالي رغم التمسك بشؤونهم الداخلية.

كانت لحواضر مزاب مواقف حاسمة من الحملة الفرنسية وأكدوا هذا الموقف من خلال مشاركتهم الفعالة في المقاومة المسلحة إلى جانب الحاج أحمد باي والأمير عبد القادر، كما أنهم وقفوا في وجه القاطرة الإستعمارية العابرة للصحراء الجزائرية.

التطور الفكري في حواضر وادي مزاب أدى لبروز طبقة من المصلحين والمفكرين الأعلام، عملوا جميعا على تكوين مجتمع ناضج فكريا وسلوكيا قادر على مقاومة كل المحاولات الإستعمارية الرامية لطمس معالم الهوية الوطنية، هذا التيار الفكري فهم الدين الإسلام فهما صحيحا معتدلا جعل من الفرد اللبنة في بناء المجتمع الصالح الرافض للذل والقهر، فكان أعلام وادي مزاب أمثال إبراهيم بن عمر بيوض، وأبو اليقظان، ومفدي زكرياء وغيرهم كثير رواد

الحركة الوطنية رغم إختلاف منطلقاتهم ، فتعددت جوانب نضالهم وكانت سمتها الشمولية والوحدة فيما تعلق بالقضايا الوطنية.

بادرت حواضر وادي مزاب في الدعاية للثورة مبكرا، وكانت السبب في إقناع الطبقة المبعدة قهرا عن فكرة الكفاح ضد العدو، إلا أن هذه المحطة التاريخية لحواضر وادي مزاب مازالت بحاجة إلى بحث أكاديمي جاد.

مصطفى طاعة
Taa.mustapha@univ-ghardaia.dz

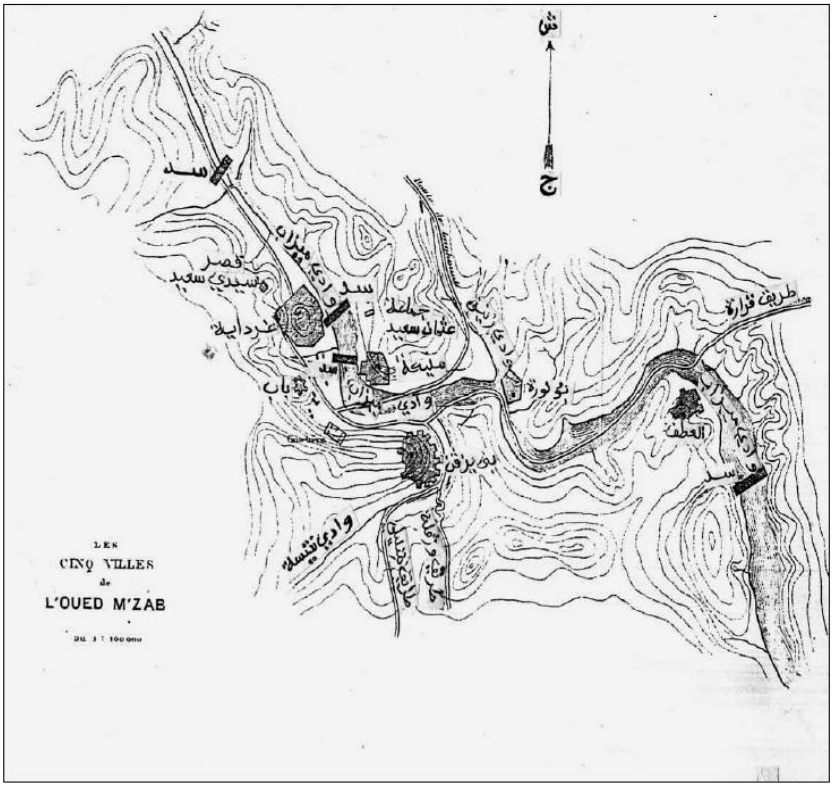

01. واصل بن عطاء: هو ابو حذيفة بن عطاء المعتزلي المعروف بالغزال مولى بني ضبة وقيل مولى بني محزوم، كان أحد الأيمة الكبار المتكلمين، ويحكى أنه كان يلثغ بالراء ينطقها غينا، قال في حقه ابو العباس المبرد في كتاب "الكامل": «كان واصل بن عطاء أحد الأعاجيب وذلك أنه قبيل الشفة في الراء فكان يخلص كامه من الراء ولا يفطن لذلك لإقتداره على الكلام وسهولة ألفاظه». ينظر: محمد بن أبي بكر بن خلكان ،وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق : حسان عباس، المجلد السادس، دار صادر، بيروت،1978م، ص07.

02. محمد بن بكير بن أبي بكر بن يوسف الفرسطائي النفوسي أبو عبد الله: أحد أقطاب الإباضية في المغرب الإسلامي، ولد بجبل

نفوسة في ليبيا، ولم تحدد كتب السير تاريخ ميلاده فجعله الأستاذ الجعبيري في الربع الأخير من القرن الرابع الهجري، كان له الفضل في تأسيس نظام العزابة وضع قواعده ومع مرور الزمن أصبح هذا النظام بمثابة الإمام في جميع الأمور والأحكام، أجمعت المصادر على أن وفاة الشيخ كانت سنة 440هـ/ 1049م. ينظر: مجموعة من الباحثين، معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب الإسلامي، ج2، ط1، نشر جمعية التراث، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 1999م، ص 368.

03. نظام العزابة: العزابة اسم لهيئة محدودة العدد يتراوح بين عشرة أعضاء وستة عشر عضوا، تمثل خيرة أهلي البلد علما وصلاحا ، تشرف على شؤون المجتمع الإباضي، تختار هذه الهيئة من بين أعضائها شيخا يسمى (شيخ العزابة) يكون أعلمهم وأكثرهم كفاءة ولا يشترط فيه أن يكون أكبرهم سنا، يرجع الفضل في تأسيسها إلى الشيخ محمد بن بكر بن أبي بكر بن يوسف سنة 413هـ/ 1022م. ينظر: علي يحي معمر، الإباضية في موكب التاريخ، مراجعة الحاج سليمان بن الحاج إبراهيم بايزيز، الحلقة الأولى، ط3، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، سلطنة عمان، 2008م، ص ص 79، 80.

04. سعيد بن علي بن يحي بن يدر بن سليمان ابن عثمان الجربي الخيري (أبو صالح): ولد في قرية أجيم بجزيرة جربة بتونس، وبها نشأ وأخذ العلم، قدم إلى وادي مزاب لما تفشى بها الجهل سنة 854هـ/ 1450م، ولعل من بين أهم إنجازاته هو تأسيس هيئة أسماها في البداية مجلس الفتوى، جمع هذا المجلس كبار العلماء من وادي مزاب، وقد أطلق عليه بعد وفاته إسم مجلس عمي سعيد، كما أن للشيخ الفضل في إنشاء دار التلاميذ (إيروان) في غرداية درس فيها مختلف العلوم الشرعية واللغوية، نسخ وجمع الكثير من الكتب وضمها في خزانة دار إيروان، توفى في غرداية سنة 898هـ الموافق لجانفي 1492م. ينظر: مجموعة من الباحثين، المرجع السابق، ج2، ص182.

05. الشيخ إبراهيم بن عمر بيوض: زعيم الإصلاح في وادي مزاب ولد بقصر القرارة سنة 1313هـ/ 1899م تعلم من شيخه عمر

بن يحي الكثير، ونبغ بذكائه، كان عضوا في حلقة العزابة، أسس معهدا سماه معهد الشباب، شارك في تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1350هـ/ 1931م، وفي سنة 1355هـ/ 1937م أسس جمعية الحياة رائدة النهضة في الجنوب الجزائري، من إنجازاته الفكرية تفسير القرآن الكريم وهو مسجل من 1500 ساعة، وألفا الكثير من الكتب والفتاوى، توفي في مسقط رأسه سنة 1981م ينظر: نفسه، ج2، ص 20 وما بعدها.

06. إبراهيم بن عيسى حمدي أبو اليقظان: ولد في القرارة سنة 1306هـ/ 1888م من علماء وادي مزاب، بدأ مشواره التعليمي في مسقط رأسه ودرس في معهدي عمر بن يحي و إبراهيم الأبريكي، وعمل فترة من الزمن بباتنة، ثم عاد إلى معهد القطب سنة 1325هـ/ 1907م ولازم الشيخ، ثم انتقل إلى تونس سنة 1330هـ/ 1912م ونظم البعثات العلمية فكان رائدها في وادي مزاب، اتخذه إبراهيم بيوض من مساعديه في الحركة الإصلاحية، وشارك مشاركة فعالة في تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ويعتبر أبو اليقظان شيخ الصحافة الجزائرية، كانت له آثار فكرية فاقت الستين عنوانا، توفى سنة 1393هـ/ 1973م. ينظر: نفسه، ص ص 27، 28.

07. بكير بن إبراهيم بن عمر بن حمو العنق: ولد بالقرارة سنة 1285هـ/ 1868م كان من رجال العلم والإصلاح، اشتهر بلقب "أسد القرارة" أخذ العلم من الحاج بكير بن الحاج قاسم، ثم من الحاج عمر بن يحي و الحاج محمد بن الحاج قاسم، وفي سنة 1902م انتقل إلى معهد القطب، اشتغل بالتجارة في تبسة، وبعد وفاة الشيخ الحاج إبراهيم بن يحي عين رئيسا للعزابة وإستعان به الشيخ بيوض في حركته الإصلاحية، أسس رفقة عباس بن حمانة أول مدرسة عصرية في الجزائر سنة 1331هـ/ 1913م، توفي سنة 1353هـ/ 1934م. ينظر: نفسه، ص 91.

08. مصالي أحمد بن الحاج: زعيم شعبي من أبرز رجال السياسة في الجزائر ولد سنة 1912هـ/ 1898م بتلمسان وتعلم بها، التحق بالجيش الفرنسي وعمل في بعض المصالح الفرنسية، وكان له الفضل في إنشاء حزب نجم شمال إفريقيا سنة 1344هـ/ 1926م في باريس،

وحزب الشعب سنة 1355هـ/ 1937م وحركة انتصار الحريات الديمقراطية سنة 1365هـ/ 1946م وفي ثورة التحرير تخطته الأحداث وظل مقيما بفرنسا إلى أن توفي سنة 1393هـ/ 1973م،ولئن كانت وفاة مصالي الحاج سنة1394هـ/ 1974م، فإن صاحب هذا المرجع غالبا مارجح السنوات الميلادية وهذا الإرتجال في كتابة التاريخ قد لا يرضي الكثير من الباحثين. ينظر: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، ط2، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، 1980م، ص ص304، 305.

09. زكرياء بن سليمان بن يحي بن الشيخ سليمان آل الشيخ الشهير ب(مفدي زكرياء): ولد في بني يسجن سنة 1326هـ/ 1908م، ابتدأ مشواره العلمي فيها، ثم انتقل إلى عنابة حيث حفظ القرآن الكريم، وفي سنة 1342هـ/ 1924م انتقل إلى تونس ضمن البعثة العلمية إلى غاية سنة 1344هـ/ 1926م رجع إلى الجزائر وشارك في الحركة الوطنية بشكل فعال وانضم إلى حزب شمال إفريقيا ونظم له نشيده الرسمي، شارك في الثورة المباركة وتعرض للسجن للعديد من المرات، ترك تراثا أدبيا ضخما أهمه النشيد الوطني، توفي سنة 1397هـ/ 1977م. ينظر:مجموعة من الباحثين،المرجع السابق،ج2، ص 159.

إبراهيم بن عيسى غرافة: من رجالات غرداية، كان مزدوج الثقافة، مارس التجارة بالعاصمة في العشرينات من عمره، وكان دكانه ناديا للجزائريين الثائرين ومقصدا للصحفيين الأوروبيين اليساريين، يطلعهم على أعمال الإدارة الفرنسية لتنشر في صحفهم ، كان من دعاة التعليم العربي والصحافة ، وبسبب نشر مقالات التحريض ضد فرنسا ألقي عليه القبض ورفاقه المناضلين في 13 رجب 1356هـ الموافق 17 سبتمبر 1937م، قتل سنة 1363هـ/ 1944م بمؤامرة إستعمارية. ينظر: نفسه، ص 30.

المراجع:

- إبراهيم بن محمد، 2017م، معالم الحضارة في واحة القرارة، مطبعة شريف. غرداية، الجزائر.
- إبراهيم بن يحي (القرادي)، 1990م، حياته وآثاره، تقديم محمد ناصر، الحلقة الأولى، نشر جمعية النهضة، المطبعة العربية، الجزائر
- إبراهيم بن يحي (القرادي)، 2015م، رسالة في بعض أعراف وعادات وادي مزاب، تحقيق وتقديم، يحي بن هون حاج امحمد، ج2، طبعة خاصة، دار مساحات المعرفة، الجزائر.
- إبراهيم محمد طلاي، 2013م، مزاب بلد كفاح، دراسة تاريخية اجتماعية تلقي أضواء على نشأة هذا البلد وحياة ساكنيه، مطبعة الآفاق ، غرداية، الجزائر.
- أحمد بن هطال التلمساني، 2004م، رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الجزائري 1785-1804م، حررها وقدم لها، محمد بن عبد الكريم، ط2، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبوظبي.
- أحمد توفيق المدني، 1986م، محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766م-1791م. سيرته، حروبه، أعماله، نظام الدولة والحياة العامة في عهده، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر
- إسماعيل بن محمد لعساكر، 2018م، بريان تاريخ وحضارة، دراسة تاريخية، حضارية، سياسية اقتصادية اجتماعية دينية ثقافية، إشراف إبراهيم بن بكير بخاز، ط1، مكتبة أسامة، غرداية، الجزائر.
- أطفيش محمد بن يوسف، دون تاريخ، الرسالة الشافية في بعض تواريخ أهل وادي مزاب، نسخة مخطوطة، تحت رقم C831،A864R، معهد الدراسات الإسلامية.
- الحاج موسى بن عمر، 2008/2007م، القضايا الوطنية والعربية والإسلامية من منظور أعلام مزاب 1908م-1962م، رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث المعاصر، جامعة الجزائر.
- الحسن بن محمد الوزان (ليون الإفريقي)، 1983م، وصف إفريقيا، تحقيق: محمد حجي ومحمد الأخضر، ج2، ط2، دار الغرب الإسلامي، لبنان.
- بكير بن سعيد أعوشت، 1993م، ميزاب يتكلم، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر.

- حمو محمد عيسى النوري، 1982م، دور المزابيين في تاريخ الجزائر قديما وحديثا، المجلد1، المطبعة العربية، الجزائر
- سيمون بفايفر، مذكرات جزائرية عشية الاحتلال، 2009م، ترجمة: أبو العيد دودو، دار هومة، الجزائر.
- عبد الرحمن بن خلدون، 2000م، تاريخ بن خلدون، ج07، دار الفكر، بيروت، لبنان.
- عبد القادر عزام عوادي، مارس 2018م، هجرة بني مزاب إلى تونس ودورهم في الحياة الثقافية والسياسية التونسية خلال فترة 1881-1956م، دار نزهة الألباب للنشر والتوزيع، غرداية، الجزائر.
- علي يحي معمر، الإباضية في موكب التاريخ، 2008م، مراجعة الحاج سليمان بن الحاج إبراهيم بايزيز، الحلقة الأولى، ط2، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، سلطنة عمان.
- قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج، 2011م، معالم النهضة الإصلاحية عند إباضية الجزائر 1157هـ/1744م إلى سنة 1382هـ/1962م، ط1، المطبعة العربية، الجزائر.
- محمد صالح ناصر، 2018م، أبو اليقظان وجهاد الكلمة، ج1، ط5، دار ناصر للنشر والتوزيع، الجزائر.
- محمد ناصر بالحاج، 2014/2013م، النظم والقوانين العرفية بوادي مزاب في الفترة الحديثة (فيما بين القرنين التاسع والثالث عشر الهجريين، الخامس عشر والتاسع الميلاديين)، رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة قسنطينة.
- محمد وقاد،2009م/2010م، جماعة بني ميزاب وتفاعلاتها الإقتصادية والإجتماعية بمدينة الجزائر أواخر العهد العثماني (1112هـ - 1246هـ/1700م – 1830م)، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر.
- يحي بن بهون الحاج امحمد، 2015م، فن العمارة الإسلامية بوادي مزاب، القرارة، مجلة الحياة، العدد 19.
- يحي بوعزيز، 1980م، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، قسنطينة، ط1، دار البعث، الجزائر.

- يوسف بن بكير الحاج سعيد، 2017م، تاريخ بني مزاب دراسة اجتماعية واقتصادية وسياسية، ط4، المطبعة العربية، الجزائر.

- المراجع بالأجنبية

- A. De. C. Montylins Ki Adec, 1885, Notes historiques sur le M'zab Guerrara depuis sa fondation, Alger.

للإحالة على هذا المقال:

طاعة مصطفى، سعيود إبراهيم، (2022)، «**حواضر وادي مزاب عبر التاريخ**» . **المواقف**، المجلد: 17، العدد: خاص، جانفي 2022، ص. ص 810- 838.